الطب و الأطباء بتلمسان في العهد الزياني

الدكتور/ قاسمي بختاوي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة شلف – الجزائر

Abstract :

In the past Tlemcen used to be a scientific, a cultural center and a destination for the scientists and students.

This is why a lot of people moved there from everywhere because it had a good reputation as well as its leaders. Those ones built mosques, schools and "zaouias". Moreover, they attracted the "oulemas" purchased looks and founded libraries.

As a result , Tlemcen became the capital of the "Zianides" and of the scientists of every field such as medecin that progressed all along this period thanks to the help of famous leaders and the the arrival of migrants coming from Andalousia.

The spread of medicine was also due to the continual need of doctors to cure the victims of wars against merinides and hafside and face up to the numerous epidemies**.**

مقدمة:

كانت تلمسان عبر العصور مركزا للإشعاع العلمي والثقافي، ومحجا للعلماء وطلبة العلم؛ إذ توافد عليها خلق كثير من المشرق والمغرب، لما اشتهر به حكامها من حب للعلم وأهله، حيث أقاموا المؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس وزوايا، وتنافسوا على استقطاب العلماء، واقتناء الكتب وإنشاء المكتبات، وحضور مجالس العلم والمناظرات.

نتيجة لهذا كله، برز بتلمسان حاضرة بني زيان، علماء في مختلف الميادين، ساهموا في إثراء الحضارة الإنسانية بما أنتجوه من مؤلفات. فما كان حظ الطب من عناية آل زيان؟ ومن هم أشهر الأطباء في هذه الفترة؟ وما هي أهم المؤلفات الطبية آنذاك؟

1 – العوامل المساعدة على تطور الطب عند الزيانيين:

نال الطب حظا وافرا من الرعاية والاهتمام بتلمسان أيام حكم بني زيان؛ ذلك أن الحركة الفكرية عموما لقيت دعما وتشجيعا من قبل الحكام. و كان للهجرات الأندلسية المتتالية باتجاه المنطقة تأثيرها الواضح في مختلف مناحي الحياة، كون الوافدين كانوا مهرة في كثير من الفنون بما فيها الطب؛ إذ فتحت تلمسانذراعيها لهؤلاء، وفسحت لهم المجال لإبراز قدراتهم، فتمكنوا من الانصهار في المجتمع والمساهمة في بناء صرحه الحضاري[1]. أما الدافع الرئيس في اعتقادي، الذي دفع إلى العناية بالطب وعلومه، فهو الظروف المضطربة التي عاشتها تلمسان الزيانية، والتي ميزها الصراع شبه الدائم مع جيرانها المرينيين والحفصيين، وما خلفه من جرحى نتيجة المواجهات العسكرية، والمجاعات والأمراض الناتجة عن التذبذبات المناخية، أو عن الحصار المريني لتلمسان،كذاك الذي فرضوه عليها بين سنتي 698 – 706ه/1299 – 1307م، والذي أثر سلبا خاصة على الوضع الصحي للسكان نتيجة قهر الجوع وشدة الفقر[2]. كما انتشرت بالمغرب الأوسط خلال هذه الفترة أمراض فتاكة خلفت كثيرا من الضحايا، كوباء الطاعون الأسود التي تفشى بين عامي 750 و751ه على عهد السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (749 - 753ه/1348 - 1353م)؛ ليعود هذا الوباء ثانية خلال الفترة الممتدة بين 764 و765ه في ظل حكم السلطان أبو حمو موسى الثاني (760 – 791ه/1359 – 1389م)، ثم يتكرر الأمر سنة 845ه/1442م في عهد أبو

العباس أحمد العاقل (834 – 866ه/ 1431 – 1462م)[3]. فلا شك أن ما خلفه هذا الوباء القاتل من وفيات كان دافعا لدراسة الطب، قصد معرفة أعراض الأوبئة وطرق علاجها ووسائل الوقاية منها، فبرز بذلك العديد من الأطباء والمهتمين بالطب، فمنهم من امتهن هذه الحرفة، ومنهم من صنع أدوية وعقاقير، أو ألف في هذا المجال.

2-أشهر الأطباء والمهتمين بالطب بتلمسان أيام حكم بني زيان:

عرف سلاطين بني زيان بحرصهم على العناية بالطب مثلما كان شأنهم بالعلوم الأخرى، فبرز في العلوم الطبية العديد من الأسماء التي ذاع صيتها في الآفاق، فمنهم الممارسين، ومنهم المؤلفين، ومن هؤلاء وأولئك نذكر:

التلالسي (ت767ه): هو أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة بن علي التلاليسي، طبيب جراح، وأديب وشاعر. وُلد بتلمسان واستقر بها. سجنه السلطان يوسف بن يعقوب المريني مع كثير من أهل تلمسان أثناء حصاره الطويل لعاصمة بني زيان (698 – 706ه). ولما طعن السلطان المريني من طرف أحد خدمه في السابع من ذي الحجة من سنة 706ه، أحضر التلاليسي لمعاجته، لكن الطعنات البليغة كانت قد مزقت أحشاء السلطان، فلم يجد علاجه نفعا[4]. اتخذه السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني (760 – 791ه) بعد ذلك طبيبا خاصا به، وكان له باع في الشعر كما تدل على ذلك القصيدة التي مدح بها السلطان في ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم.يقول المقري: "ومن الموشحات التي خوطب بها السلطان أبو حمو في مولد سنة سبع وستين وسبع مائة، قول طبيب دولته أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير بالتلاليسي:

من لم يزل يسمو إلى المعالي كل حين

ذاك أبو حمو المولى أمير المسلمين

طاعته غنم نلنا بها دنيا ودين"[5].

توفي بتلمسان حوالي سنة 767ه / 1365م[6]ودفن بالقرب من باب كشوط الذي كان يخرج منه إلى المنصورة، وعرف هذا الباب من يومه بباب سيدي بوجمعة[7].

إبراهيم بن أحمد التلمساني المعروف بالثغري: طبيب وصيدلاني، عاش في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر ميلادي،وكان معاصرا لابن خلدون. وُلد بتلمسان ومارس مهنته بها. من مؤلفاته في الطب، معجمه الصغير الذي ألفه على حروف المعجم، وضمنه قائمة للأعشاب الطبية، ومعلومات عن الأدوية المستعملة في عصره مع إبراز منافعها. وله تأليف آخر في هذا المجال سماه "الأدوية ومنافعها"، قسمه إلى أبواب، وصنف الأدوية كأدوية العيون وأدوية الأسنان[8].

لسان الدين بن الخطيب: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد السلماني نسبة إلى منطقة سلمان باليمن، قدم أهله إلى الأندلس عقب الفتح الإسلامي. ولد لسان الدين بلوشة غرب غرناطة سنة 713ه/1313م،ونهل من علمائها في فنون اللغة والأدب والطب والفقه والصول وغيرها. دخل مجال السياسة وعرف بذي الوزارتين بعد أن ولاه السلطان المريني أبي عنان فارس الكتابة والوزارة. عاش بتلمسان قبل فراره إلى فاس سنة 760ه/1358مإثر خلع السلطان أبي عنان. اتهم في آخر حياته بالبدعة والإلحاد والزندقة من

قبل خصومه السياسيين، فحوكم وقتل سنة 776ه/1374م. خلف ابن الخطيب كما هائلا من المؤلفات ضاع الكثير منها أثناء نكبته، منها ما هو في الطب مثل: "مقنعة السائل عن المرض الهائل"، وهو عبارة عن رسالة وصف فيها ابن الخطيب الوباء الكبير الذي اجتاح الأندلس وحوض البحر المتوسط عام 749ه، وهلك فيه العديد من أعيان وعلماء الأندلس والمغرب، و"عمل الطب لمن حب"،الذي ألفه سنة 761ه وأهداه إلى السلطان أبي سالم المريني، تكلم فيه عن أمراض مختلفة، وشخص الإصابات، كما شرح وسائل الوقاية وسبل العلاج. ومن كتبه في الطب أيضا: "اليوسفي في الطب"، و"رجز في الطب"، و"المسائل الطبية"، و"رجز الأغذية"، و"رسالة تكوين الجنين"، و"الرجز في عمل الترياق"، و"الوصول لحفظ الصحة في الفصول"، و"البيطرة والبيزرة"[9].

محمد بن علي بن فشوش: طبيب ومدرس للطب، وُلد بتلمسان و استقر بها. عاش في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر ميلادي. يقول الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل(844 – 950ه)[10]، الذي درس عنده، وأجيز في ذلك: "ولقينا بها – تلمسان - جماعة أخر من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدربة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني"[11].

أبو الفضل محمّد بن إبراهيم بن عبد الرّحمن بن محمّد بن الإمام (ت845 ه/1443م): هو العلامة الحجة النظار، صدر البلغاء، وتاج العارفين، وأعجوبة الزمان؛ أحد أقران ابن مرزوق الحفيد. درس بتلمسان، وتمكن في علوم البيان والتصوف والطّب والآداب، وقد أثنى عليه كلّ من التنسي والسخاوي والمقريزي. نقل عنه الونشريسي كثيرا في معياره. توفي سنة 845ه[12].

ISSN 2437-0797
Dépôt Légale 6799-2015

ابن أبي حجلة (725 – 776ه): هو شهاب الدين أبو العباس بن يحي بن أبي بكر بن عبد الواحد التلمساني. ولد بتلمسان سنة 725ه/1325م، ومات بالقاهرة بوباء الطاعون سنة 776ه/1375م. درس الأدب والحديث والفقه والشعر الصوفي. له مؤلفات عديدة منها: ديوان الصبابة، و"الطب المسنون في دفع الطاعون"، وغرائب العجائب وعجائب الغرائب، ومغناطيس الدر النفيس[13].

علي بن ثابت التلمساني (762 – 829ه): هو على بن ثابت بن سعيد بن علي بن محمد القرشي الأموي التلمساني؛ له حوالي ثمانية وعشرين تأليفا، معظمها في أصول الدين والحديث والتاريخ والطب. أخذ عن الإمام ابن مرزوق الحفيد الذي أجازه. عرف بورعه واجتهاده في الدين. توفي سنة 829ه[14].

محمد بن أحمد بن سعيد العقباني (ت871ه/1466م): يعد من أكبر فقهاء المالكية. ولد بتلمسان وأخذ عن مشايخها. رحل إلى المشرق ثم عاد وتولى القضاء بمسقط رأسه. كانت له مشاركة في الأدب. من اهم مؤلفاته كتاب: "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر"، الذي تطرق فيه إلى مشكلة الأخلاق في الطب، كادعاء البعض علم الطب ومعرفة الأدوية وهو على غير هذه الحال، فيجرب في أجسام البشر دون علم؛ مما يتسبب في إتلاف بعض الأعضاء الحساسة كالسمع والبصر، أو ربما يأتي على نفوس بريئة[15].

محمد بن يوسف السنوسي: هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني التلمساني، ولد في تلمسان سنة 832ه/1428م. درس علوما مختلفة منها العلوم الطبية، وجعل معارفه مكملة لبعضها البعض؛ إذ ربط بين الطب والدين، وهو ما ظهر في

مصنفه الموسوم ب "شرح حديث المعدة بين الداء والحمية رأس الدواء"، الذي عرف بعناوين أخرى منها: "رسالة في الطب" و"تفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبية". وقد وضح في كتابه هذا أهمية الحمية، وتأثير الأغذية المختلفة والأشربة والهضم على جسم الإنسان، وكيفية العناية بالمعدة باعتبارها بيت الداء[16]. ومن مؤلفاته الأخرى في الطب: "مجربات في الطب"[17]، الذي جمع فيه ما جربه من الفوائد والعلاجات والأدعية المستجابة، و"شرح لأرجوزة ابن سينا في الطب"[18]، و"فضل مهنة الطب"[19].توفي في تلمسان سنة 895ه/1490م.

أبو الفضل محمد المشدالي: هو أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد بن حسن بن عبد المحسن المشدالي البجائي. نبغ في علوم شتى منها الطب. ولد ببجاية حوالي سنة 821ه. حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة. أخذ الكثير من العلوم عن أبيه وأخيه وغيرهم من الشيوخ بمسقط رأسه، قبل أن يرحل إلى تلمسان مطلع سنة 840ه لينهل عن الكثير من علمائها ومشايخها، فأخد عن ابن مرزوق الحفيد في التفسير والحديث والفقه والأصلين والأدب والمنطق والجدل والفلسفيات والطب والهندسة، وعن أبي الفضل بن الإمام في التفسير والحديث والطب والتصوف، وعن ابن فشوش في الطب، وعن غيرهم في فنون شتى. عاد إلى بجاية سنة 844ه وتصدر للتدريس، ثم غادرها باتجاه المشرق أين درس وأدى فريضة الحج، وعاد بعدها إلى مصر ودرس بالجامع الأزهر، حيث كان الإمام السخاوي ممن حضروا دروسه. كما تشرف هناك بلقاء الحافظ أبي حجر العسقلاني لما دعي لتشخيص مرضه والنظر في علاجه، لأنه كان في الطب واحد عصره وفريد دهره، فعاده في ذي الحجة سنة 852ه، علما أنه كان يكره أن يشتهر في الطب، لأن العلوم التي كانت تشرف أهلها آنذاك

هي علوم الفقه والتوحيد والتصوف والحديث. وقد يكون ذلك من أسباب عدم تركه مؤلفات في الطب، على الرغم من أنه كان يقصد لطلب الدواء[20].

موشيه بن صامويل: هو طبيب يهودي وفد على تلمسان من الأندلس. عرف باسم ابن الأشقر اليهودي. لازم السلطان الزياني محمد بن أبي ثابت. يقول عنه تلميذه عبد الباسط بن خليل المصري الذي درس عنده الطب تلمسان: "لازمت في الطب الرئيس الفاضل الماهر الأدربي الأقدري، موسى بن سمويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي، المتطبب... لم أسمع بذمي، ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم...". ويضيف عنه قائلا: "ولد بمالقة قبل العشرين وثمانمائة، وأخذ عن أبيه وغيره، ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه. لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كثيرة في الطب وغيره، وأجازني. وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان"[21].

إبراهيم عنقاوة: هو يهودي أندلسي، هاجر من طليطلة إلى المغرب، ومنها إلى وهران وصولا إلى تلمسان؛ ليصبح فيما بعد أحد أقطاب الجالية اليهودية، حيث تحول قبره إلى مزار مقدس لليهود بعد وفاته سنة 888ه/1442م.لقد كان هذا اليهودي متمكنا في التعاليم اليهودية التي ورثها عن أبيه. كما كانت له دراية بالعلوم الطبية مثل كثير من اليهود المقيمين في الأندلس؛ الأمر الذي أهله ليكون طبيبا ماهرا.ومن الأمور التي سمحت له بالبروز والتألق، أنه عند قدومه إلى تلمسان، وجد بنت السلطان الزياني أبي العباس أحمد العاقل (834 – 866ه) مريضة، وعجز الأطباء عن علاجها، فأنذر السلطان جائزة لمن يستطيع أن يشفيها. يبدو أن إبراهيم عنقاوة وجد في ذلك فرصة مواتية لتحقيق ما يصبو إليه اليهود في تلمسان، فتقدم إلى قصر الحاكم الزياني ليعرف بنفسه ويعرب عن رغبته في أن يتولى علاج ابنته، وكان شفاؤها على

ISSN 2437-0797
Dépôt Légale 6799-2015
ص118–128

يديه. عندئذ دعا السلطان الطبيب لمكافأته، فأبدى عدم رغبته لا في مال ولا في منصب، بل كان طلبه الوحيد السماح لليهود المقيمين خارج الأسوار بالإقامة داخل المدينة، فكان له ما أراد، حيث سمح للجالية اليهودية بحط رحالها بالقرب من قصر السلطان المعروف بقصر المشور[22].

الخلاصة:

يبدو لي أن الطب بتلمسان نال حظه من العناية والاهتمام أيام حكم بني زيان؛ إذ خصصت كراسي لتدريس هذا العلم بالجوامع، تخرج منها العديد من الأطباء والمهتمين بالعلوم الطبية. فمنهم من مارس الطب، ومنهم من قام بأبحاث أثمرت بمعرفة أعراض بعض الأمراض، وطرق علاجها، وكيفية الوقاية منها، فألف في ذلك كتبا فسحت المجال بعدهم لتطوير الأبحاث في مجالي الطب والصيدلة. والملاحظ أن علماء تلمسان كانوا موسوعيين، حيث كانوا يجمعون بين معارف مختلفة، كما هو الشأن بالنسبة للأعلام الذين سبقت ترجمتهم. ولعل تطور العلوم عامة والعلوم الطبية خاصة، مرده إلى اهتمام سلاطين بني عبد الواد بتطوير الحركة العلمية، بما قدموه من تشجيع للعلماء والراغبين في طلب العلم.

الاحالات:

1 – جمال يحياوي، آثار الهجرة الأندلسية على تلمسان، مجلة الوعي، العدد المزدوج (3 – 4)، أفريل– ماي 2011، تلمسان، ص ص 90 – 94.

2 –التنسي (محمد بن عبد الله)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص ص 130 – 132.

3-خالد بلعربي، ورقات زيانية (دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص ص107 – 112.

4-المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد)، نفح الطيب بغصن الأندلس الرطيب، ج5، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ص243.عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1979، ص ص299 – 300.

5- المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد)، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، 1980، ص 247.

6 – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، ج10، دار المعارف، القاهرة، ط1، دت، ص 87. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط2، 1980، ص 60.

7- عبد الوهاب بن منصور، المرجع السابق، ج1، ص 300.

8 - المصدر ابن مريم،البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908،ص 166. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 – 20م)،ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، صص 105-106.

9 - لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص ص 34 – 35.

10 - عبد الباسط بن خليل الملطي، المجمع المفنن بالمعجم المعنون، ج1، تحقيق عبد الله بن محمد الكندري، دار البشائر الإسلامية، ، بيروت ط1 ، 2011، ص 12.

11-عبد الباسط بنخليل بن شاهين الملطي، رحلة عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس (866 – 871ه/1462 – 1467م)، جزء من الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، الجامعة اللبنانية، طرابلس، ص42.

12-ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 220 – 221.عادل نويهض، المرجع السابق، ص ص 74 – 75.

13 – ابن أبي حجلة، مغناطيس الدر النفيس، مخطوط، جامعة ييل، نيو هافن، الولايات المتحدة الأمريكية، ص 10. الحفناوي (محمد أبو القاسم)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيار فونتانا، الجزائر، 1906، ص 42. عادل نويهض، المرجع السابق، ص ص 364 – 365.

14-الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص 259.عادل نويهض، المرجع السابق، ص 71.

15- العقباني (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني)، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي الشنوفي، مقتطف من الدراسات المشرقية بالمعهد الفرنسي، دمشق، 1967، ص 84.

16-عبد العزيز الصغير دخان، الإمام العلامة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني وجهوده في خدمة الحديث النبوي الشريف، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ص 134.

17-خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، ج7، ص 154.

18-الملالي، المواهب القدسية في المناقب السنوسية، مخطوط. التنبكتي (أحمد بابا)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989، ص 572.

19- عبد العزيز الصغير دخان، المرجع السابق، ص 135.

20- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج9، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص ص180 - 184. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص ص 106 - 107.

21-عبد الباسط بن خليل، المصدر السابق، ص 42 - 43.

22 - Darmon, Origine et constitution de la communauté israélite à Tlemcen, Revue africaine, Volume 14, 1870, pp 376 – 383.